في سياستنا الداخلية
بعد الوثبة

•

كان أسمى مظاهر وثبتنا الشعبية الطافرة الظافرة الوعي المنظم والشعور بمسؤولية الامن المستمدة من تنظيم هذا الوعي خلال أيام الحركة. وانما اعتبرناه أسمى مظاهر حركتنا هذه لانه أضفى عليها قدسية من قدسيته وحماها من الفوضى وعوامل الفساد التي لو حدث منها شيء ما قل لاحبط المسعى وعكس الآية، واوصل المغرضين من المدسوسين الى ما ارادوا من افساد الامر باسم العصبيات والنزعات التي حرصوا عليها وأرصدوا لها ما شاؤا من مكيدة وما وسعهم من جهد وما واتاهم من حيلة. غير انهم ارتدوا في محاولاتهم كلها خاسئين خاسرين بفضل هذا التنظيم الذي صان الحركة بسلامة الادراك وسمو الرشد عن الاصغاء لتلك النوازع، وارتفع بها عن الاخلال بالامن وحصنها من كل شائبة تشوه جمالها أو تخدش شعيرة من شعائر وطنيتها الصادقة المنبعثة من ضمير الامة وكرامة الشعب الموحدة المجردة.

بهذا كان (التنظيم) اسمى مظاهر الحركة المباركة .

وبهذا عينه طفرت بنا هذه الحركة من المؤخرة في قافلة السياسة الشرقية الى الطليعة في هذه السياسة . وليس من شك في أن رفض معاهدة (بورتسموث) حدث فريد في سياسة الشرق خلال هذه الاعوام المليئة بجسام الاحداث . وليس من شك في انه طوّر موقف العراق تطويراً جوهرياً تقدم به سنين عدة الى الامـــام . وليس من شك بعدئذ ، في ان ذلك جعل العراق قدوة وقائـــداً للحركات الانقلابية الكريمة ليس في البلاد العربية فقط بـــل في الشرق كله ، الظامىء الى منابـــع فردوسه المفقود ظمأ الورد الى بشائر الربيع .

فالحقيقة التي نستطيع – اذن – تسجيلها وعدّهـا من الامور الواهنة هي اننا ضربنا مثلاً في سلامة الوعي المتأثر بالتطور الصاعد انتقل بنا من السفوح الى القمم في انظار الشعوب والامم . فبينما كنا من التأخر في عيون المستعمرين بحيث نرضخ لارادة (المتعهدين) من اجرائهم الذين اخذوا البلاد (بالالتزام) ارتفعنا الى شاهق قذفنا منه بهؤلاء (المتعهدين) في وجوه أسيادهم صاغرين . وهناك تغيرت النظرة العالمية الى موقف العراق وانجلت حقيقته التي بدأت تخط سياسة أخرى جديدة كتبت عناوينها بالدماء بـدل المداد ، وعبرت اليها على جسر الشرف مطمئنة تقدم ضحاياها بشجاعـــة دون شراسة ولا اعتداء ، وباقدام دون مغالبة ولا هراش . حتى بلغت بالطمأنينة الباسلة والدعة المقدمـــة مأمنها الذي هز سياسة الانكليز وقاد القضية العربية ، وبدّل الانطباع المزور على العراق

في نظر العالم الحديث .

وبعد ان بلغنا هذه الذروة المقدرة المحتومة لجهاد المجاهدين منا نريد ان نعلن باننا ما نزال في المرحلة الاولى من ميدان المعركة ، والنصر - كما يقول رجال الحرب - بالخواتيم . ولن يسرنا ان يكون هبوبنا كلهب القش لا يكاد يتوهج ويتلظى حتى يخمد ويخبو.

ومن اليقظة ان نضع لخصومنا في هذه المعركة - وهم الانكليز - حساباً . ومن اليقظة كذلك ان نبني هذا الحساب على قاعدة من حقد الانكليز الموغوري الصدور من هذه الصدمة العنيفة التي غيرت وجهة سياستهم في الشرق العربي وامتدت الى جذور خطتهم في هذا الشرق فاصابت منها ما لا يستطيعون التسليم به بسهولة .

ذلك من بواعث اعتزازنا - من غير شك - ولكني أبسطه الآن وبهذه الصراحة لا لأعتز به فقط بل لأعود الى موقفنا بعد أن بلغنا الذروة من مرحلتنا الحاضرة وانظر فيما يتوجه الينا من الواجب كي نستطيع الاحتفاظ بتوازننا الى النهاية ، فلا نؤتى ونحن في نشوة من هذا الظفر الذي ما يزال موضعياً مهما عظم .

لقد عرضت إلى تنظيم الوعي في مستهل كلامي هذا ، فقلت انه أسمى مظاهر حركتنا هذه. ومن تنظيم الوعي الذي يسمو بحركاتنا المتوالدة في طريقنا هذا أن نحافظ على جوهره في سلسلة هذه الحركات دون تقيد بطريقة تعبيره إذ يجب أن نخضعها لظروف الحركة في مجاريها المختلفة .

وقد كان من الوعي المنظم - في الفترة الاولى من هذا العهد - ان تكثر المتافات ، وتضج المظاهرات ، وتطلق العواطف عنانها مشتدة

بحماسة تلائم الظفر الجديد الرائع .

ولكن الوعي المنظم في الخطوة الثانية ينهى عن الاسترسال مع العواطف الكريمة لان الاسترسال معها والانقياد للحماسة ، فضلاً عن انه يذهب بوقار الحركة ويبتعد بها عن التأثير بشل حركة العمل المتعين علينا بعد الخطوة التي انتهينا اليها . وذلك يناقض الغاية من الوعي تمام المناقضة . ولعلنا ان استرسلنا لعواطفنا ان نفين خصومنا الحاقدين على استغلال انشغالنا بهذه العواطف المجردة من حيث لا نريد . ويومئذ يفلت — لا سمح الله — من ايدينا الزمام . وتضيع علينا الاستفادة بالحقيقة العظيمة التي برهنا عليها والتي ضحينا من أجلها لتحفظ لنا المقاييس الديمقراطية ، فلا تكون هي سبيلا اضياع هذه المقاييس .

لقد استطعنا ان نكون قادة لاكبر حركة عادلة في سياسة الشرق . وقد بقي علينا ان نضمن الاستمرار بالاحتياط والحذر والدقة ليتم لنا الظفر باطراد الصعود .

من الحسن ان نكون جنوداً مهيئين لدفع أي حادث مشوش ، ولكني أشك في حسن استمرار هذا القلق . وما أدري أي داع له بعد ان برهن الشعب الواعي على قوة ارادته؟ يلوح لي اننا نستطيع أن نجمع بين السكينة وبين المراقبة ، فاذا شذ في حياتنا السياسية مظهر أو نبا اعوجاج استطعنا ان نقومه بعد ان جربنا عضلات ارادتنا فوجدناها صالحة .

لست (محامياً) عن الحكومة . ولكنني فرد من هذا الشعب الكريم الذي هتف بسقوط الوزارة السابقة ونادى بصعود

الحكومة (الحاضرة) . ولن يهمني بعد ذلك من هذه الحكومة اكثر مما يهم الشعب كله من تنفيذها لمطالب الشعب العادلة التي اعلنتها الاحزاب وتقدم بها اتحاد الطلبة وأقرّها الجمهور .

ولكنني وأنا في صميم هذا الحضم الشعبي المائج الجياش أرى من خيري وخيره أن نسعى قبل الحكومة الى وضع قواعد الاستقرار ، وننهى عن القصد في أسلوب النضال الى الاستفزاز والاثارة ، لأننا نريد لوعينا أن يظل كريماً كعهدنا به في ساحة الجهاد . وانه لمن السهل على كل مناضل يطيعه القلم أن يطالب الحكومة بما يشاء دون أن يستفز ، وذلك أضمن لتحقيق مطالبنا وأكثر بماشاة للمصلحة فيما نشعر وتشعر به الحكومة حتى الآن من كونها حكومة شعبية لا نستطيع أن ندعي أننا احرص منها على تنفيذ مطالب الشعب وقد جاءت من أجلها باعترافنا .

وأخشى ما نخشاه إن طال إرباكنا لها بالنقد وهي ممتحنة باشق مراحل العراق أن تستقيل ، وليست استقالتها في ذاتها مما يزعج لو أن وزارة غيرها تستطيع أن تتبوأ مركز الحكم دون أزمة كفى الله المؤمنين شرها .

على أنها خطت في أيامها القلائل خطوات ذات شأن في الميزان السياسي تستحق الثناء . وليس رفض المعاهدة الذي غير وجه السياسة في الشرق العربي عملاً زهيداً . صحيح ان الشعب كان الدعامة الضخمة في هذا الرفض ، ولكن البسالة في الرفض الرسمي هي الاخرى عمل ضخم إن لم يكن أضخم باعتباره العمل المعول عليه في الواقع .

وجدير بنا ونحن نسجل هذا الحدث الفذ ونواكب هذه الخطوة الرشيدة أن نعترف بان حكومة أخرى – غير حكومة الشعب هذه المتأثرة في امرها الواقع بالشعور الوطني الصادق – لا تقدم على رفض المعاهدة بمثل هذا اليسر مع ما يعترضها من صخور واصلاد دون الرفض .

هذا مضافاً الى ما اقترن الى هذه الخطوة من اعمال الحكومة السريعة التي سردها سماحة الرئيس في بيانه التاريخي من تحرير الصحافة ، والتحقيق في الحوادث المؤسفة ، وما يتصل بذلك من وضع القاعدة التي يتم بها اطلاق الحريات الدستورية ، وتبلغ الشعب على اساسها بالتدريج ، وبقدر ما يستطيعه المسؤولون من تذليل عقبات الرخاء والكساء وغيرهما من أماني الشعب التي طال نشدانه لها وسعيه وراءها .

هذا ولما يمض على الحكومة في الحكم غير فترة قصيرة ، أفليس من الانصاف ووضع الامور في أنصبتها ان نذكر للحكومة ذلك ؟ اليس من الايمان بالواقع الذي نريد ان نجعله حكما في سياستنا المصلحة أن لا نحمل الظرف اكثر مما يحمل حرصاً على سلامته التي هي سلامة مطالبنا وأمانينا ؟

لم يسرف اولئك الكتاب الذين لم يقنعهم هذا القدر من الاصلاح ، فنحن محتاجون إلى الكثير الكثير وراء هذه الخطوة من العمل ، ولكن ينبغي ان نترك العواطف جانباً ونقدر الوقت الكافي لتحقيق هذا العمل الكثير الكثير . أما القناعة بمجرد الكلام ووضع المناهج التي طولبت بها الوزارة الحاضرة فأمر ليس شيء

أيسر منه ولا أسهل، ولكنه لا يرضينا ولا نريده – نحن الذين نطلب العمل – لو فعلته الوزارة الشعبية لانه يلحقها في نظرنا بغيرها من الوزارات التقليدية التي كانت « تحمل أسفاراً » من المناهج ينفتح « حبرها » عن عالم سحري يعشي الابصار ويشطّ له الريق .

*

ينتقدنا الغربيون ومن تأثر بفلسفتهم من مفكرينا المحدثين بان مزاجنا نحن العرب ، أو نحن الشرقيين ، على الاصح ، مزاج كئيب مظلم ، وباننا من اجل ذلك ننظر الى الحياة دائماً بمنظار اسود ، وينتهون بهذا النقد الى ان هذا المزاج الكئيب المظلم بدّل المقاييس عندنا وأقحم (الحزن) في مباهجنا فكان غناؤنا نوعاً من انواع النواح والتعديد ، ثم كان اكثرنا ينقبض في حفلات المسرات في حين ان الواقع يريدنا ان ننطلق وننشرح ونغاشي طبيعة السرور في هذه الحفلات .

ذلك ما ينتقدوننا به . وانه لواقع من الامر بلا مراء . ولعل لذلك عقداً نفسية لسنا الآن في صدد شرحها . ولكن هذا المزاج اضراراً كثيرة كان بعضها من اكبر العوامل في تأخرنا وبعدنا عن مجاراة الارتقاء في مدارجه ومعارجه .

ويلوح لي ان هذا المزاج يصلح ان يكون مصدراً في بعض الامر لما وجدته في تعجل بعض الاقلام التي اطمئن الى حسن غرضها وصدق وطنيتها وهي تغلو وتلح في الغلو بتكليف المسؤولين الجديدي العهد بالحكم بمسائل من مطالبينا محتاجة الى وقت يمكن المسؤولين من تذليل الصعاب الكثر لتحقيقها

ويخيل الي ان من ضرورات الاصلاح قبل المطالبة بتحقيق الآمال اخذ التعاون بين الكاتب المصلح وبين المسؤول بنظر الاعتبار . ويفرض هذا التعاون على الكاتب أموراً منها ايثار المصلحة على رغبة القارىء ومنها تشجيع المسؤول على العمل بالاعتراف له باهمية ما عمل ، ومنها – وهو اهمها – اعارة ظروف العمل ما تستحقه من الرعاية، سواء فيها الصعوبات التي يمتحن بها المسؤول دون الكاتب ، وسعة الزمن التي يحتاج اليها العمل .

أقول هذا ويشهد الله اني لمن أشد المطالبين حرصاً على تنفيذ المطاليب الشعبية بحذافيرها ولكني تعودت أن أنظر إلى الحوادث بمثل هذه الدقة تحرياً للحقيقة التي أطلبها دائماً لقرائي واخواني .

وقد وعدت قبل صدور بيان سماحة الرئيس بأني سأقول كلمة في ضرورة حل المجلس النيابي، ولكني علمت قبل كتابة الكلمة التي وعدت بها أن الحكومة عازمة عزماً اكيداً على حله فعدلت عن كتابة الكلمة لاني لا أحب الرياء كما لا أحب الاحراج .

وهكذا قل في جميع الطلبات التي كانت موضوعاً للمطالبين ، ولا أعيب المطالبة أو أنهى عنها بل أدعو إلى ان تكون المطالبة نوعاً من التوجيه وتوسيع الافق في امور قد يغفل عنها المسؤولون ، مع تقرير « الظرف الرسمي » وتذكر الجزء الخطير مما أنجزوه .

وعندي ان مطالبنا يجب ان تكون اوسع جداً مما عرضت له المطاليب العاجلة المحصورة بحل المجلس وادانة المسؤولين عن دماء الشهداء واعلان منهج الوزارة والجواب عن طريقة خروج صالح جبر ، وما الى ذلك من المسائل المهمة حقاً . فهذه المسائل – على أهميتها – لا

تنهض بشؤون الحياة الضخمة التي نسعى اليها ونأمل بلوغهـــا . واستطيع ان اختصر لك تلك الحياة المنشودة بكلمة فأقول : اننا نحتاجون الى انشاء حياة جديدة لا صلة لها بالماضي ، وعلى ذلك فنحن نعتبر ان السبع والعشرين سنة من تاريخنا الحديث ذهبت هـدراً ، وما شئت فطالب بعدئذ ، بتجديد الجهاز الحكومي ... بتجديد الجهاز الوزاري ، بتحقيق العدل الاجتماعي ، بنفي الشبكة الاستعمارية عن الاعصاب الحساسة في ادارة الدولة .

ولكن الحصول على هذا كله يحوجنا الى شيء من الاناة وسعة الصدر ، والى بعض الصبر في التدرج إلى ضمان ذلك رويداً رويداً وبلوغه جزءاً جزءاً . والمهم الآن وفي هـذه اللحظة أن نحقق أمرين إن ضمناهما كان الفتح لأنهما القاعدتان لبنائنا المطلوب . وهما تحديد علاقاتنا مـع الانكليز وضمان استقلالنا كما نريد ، وانعاش الحياة الحزبية مع ما يتصل بها من اطلاق الحريات الدستورية بكاملها والغاء القيود الاستثنائية . وبهذين تجتمع رسالة هذا العهد في السياستين الداخلية والخارجية : فان حققتهما جمعت لنا كل مطلب من مشتهياتنا ، ولا أزيد ، وكانت ذات اليد الخضراء في دهرنا المجدب .

ومن الغني عن البيان ان الفصل في هذه المهمة يتعرض لأشد الأهوال لانها مهمة يعترك على طرفيها عصران متناقضان ، هـــذا عنيف بوعيه وايمانه ، وذاك عنيف بتشبثه وسلطانه فلندرك لحظتنا ولنسهم بواجبنا العملي نحو النصر .